زيارة الجبـــل

دعتني أسماء لزيارة والدها في الجبل.. فهو مشتاق ليرى حفيده جلال عباد.. ذهبت ونورا وفريدة في سيارتي،ووافتني أسماء مع الصغير، وبقي وسيم وكـريم فـي البيـت ينتظران مدرّس الإنكليزية..

حمل والده الصغير الذي أنعشه هواء الجبل ففتح عينيه الواسعتين وهو يتأمل الوجه الغريب الذي ينظر اليه وقد ارتاح بين الذراعين الحنونتين اللتين تحضنانه وأخذ يقول:

-ما شاء الله! سبحان الله! كم تشبه عيناه عيني جده، وقرأ له آية الكرسي ليحفظه الله من كل سوء..

-جلال، ما أحلى هذا الإسم في مسمعي! كنت موفقة يا أسماء في اختيار هذا الإسم الذي يذكرني بأوفى صديق لي في الحياة.. ان بيننا من الذكريات الحلوة والمرة ما يـسع كتابا وحده..

-أبي! ما رأيك أن ترافقني أنا وكريم ووسيم الى بوسطن؟ فتكون قريبا من جـلال تقص عليه سيرة جده..

-الى بوسطن! هل أنتم مسافرون عن قريب؟

-نعم قررنا ذلك ، فهذا أنسب لنا كلنا ماديا ونفسيا وراحة بال من البقاء في لبنان..

-أنا لا أترك قريتي وذكرياتي وصداقاتي في هذا المكان. أنا تـاريخ متنقـل لهـذه البقعة من العالم، التي شهدت تقلبات عديدة، فماذا أفعل في بوسطن؟ عالم غريب ، ووجوه غريبة، ولسان غريب، ووحدة قاتلة..

-أبي أنت لا تستطيع العيش وحدك، تتقدم في السن ولا أحد يرعاك..

-صحتي كالحصان والحمد لله، لا أشكو شيئا، وأجد ممن لا ينكرون فـضلي كـل احترام وعون.. لقد مرت على هذه القرية أحداث أريد أن أشاهد فصولها الأخيرة.. على فكرة! ألا يجدر بك يا أسماء أن تعزي آل داليا في مصابهم؟ وأنت يا نبيلة؟ ان أم داليـا تحترمك كثيرا وتحبك.. لقد زارتني وطلبت مني أن أدلّها على مكتبك، لأنهـا تريـد أن ترفع قضية على غانم بأنه هو الذي قتل ابنتها!..

-لا يا نبيلة! لا تمسكي قضية تتعلق بغانم..قالت أسماء وهي تتناول الـصغير مـن أبيها وقد أيقظه صراخها وبدأ بالصياح وقد حلّ به الجوع فألقمته ثديها..

-لماذا يا أسماء ؟ دائما أسعى لأواجه غانم في قضية أمام المحكمة..

-من أجل وسيم.. ان كريم لا يريد أن يقحم وسيم بقصة داليا..

-هل عرف وسيم بأن داليا هي أمه؟

-نعم ياأبي..

ووجدت نفسي أقص على والد أسماء كيف أن داليا عندما وقع لها الحادث وأحست بأن حالتها خطرة، طلبت من كريم أن يبعث وراء وسيم لتودعه الوداع الأخير.. فلبى طلبها ولكنه لم يجرؤ حين عاد به من المطار أن يخبره الحقيقة.. وتصرف وسيم بطريقة جعلتني أعتقد أنه أخبره بأنها أمه، وهذا الخطأ الذي وقعت فيه جعلته يدرك أن داليا أمه وليست صديقة أمه التي تعطف عليه لأنها حرمت من الأطفال.. وعرف بالتالي أن كريم هو أبوه لا عبد الرحمن..

-وكيف كانت ردود فعله؟

لم يغفر لداليا أنها تركته وهو رضيع لتتزوج رجلا آخر.. ولكنه غفر لأبيه لأنه لم يعلم بوجوده الاّ حين عاد الى لبنان..

قصصت عليه أيضا فحوى التحقيق الذي أدلت به داليا أمام الشرطة بأنها تشكك بابن أخي غانم، الطبيب في المشفى الذي عملت فيه أسماء قبل أن تنتقل الى المشفى الحالي..وستحدثك أسماء بما تعرفه عنه وكيف آذى داليا باجراء عملية ليحرمها من الإنجاب ويكون الوريث الوحيد لخاله..

سمعنا جلبة وصياحافي بيت أهل داليا، فخرج الطبيب الى الشرفة، فشاهد سيارة مصح قرب الباب.. وكان غانم وأسعد في ساحة البيت يتعاركان، وما لبث أن خرج ممرضان يجران أم داليا بعد أن طوقاها بقميص المجانين.. كانت تصيح وهما يودعانها السيارة:

-أنا المجنونة يا غانم، أم أنت السافل الذي قتلت ابنتي!؟

كان غانم وأسعد لا يزالان يتعاركان، وغانم يحاول تهدئة أسعد الذي انقض عليه بجثته الضخمة كوحش كاسر مستشيط الغضب:

-اهدأ يا أسعد، وتذكّر الأيدي البيضاء التي قدمتها لعائلتك! هل يمكنني أن أترك امرأة عجوزا خرفة تسوئ سمعتي في البلدة وأنا نائب فيها؟ انتهت أيام التعزية، وودعنا

أصهارنا الأمراء الذين كانوا يعزونني بأختك.. هل يمكن أن أكون قتلت زوجتي وأنا الذي كتبت لها نصف ثروتي والبيت الذي أسكنه لتكون مطمئنة على مستقبلها بعدي؟ وأردف:

-اجرينا بالفلقة سوا يا مجنون! شو نسيت؟ عميان على قلبك!

سألني الطبيب:

-أنت محامية يا نبيلة وتعرفين القوانين خيرا مني.. هل يمكن لغانم أن يسترد مـا وهبه لداليا بعد موتها؟

-لا، اذا كان موثقا عند كاتب العدل حسب الأصول.. فهو يصبح ملـك ورثتهـا.. سألت أسماء:

-واذا كانت داليا قد وهبت الثروة لأحد ما فهل يمكن أن يستردها منه؟

-طبعا لا..

-لهذا قلت لك لا تفعلي!لأن غانم ليس هو الذي قتل داليا.. ان الذي حرم داليا مـن الإنجاب ، يقتلها من أجل الثروة التي أوصى بها غانم لزوجته حين هددتـه بالإنفـصال عنه..

-أذكر أنك تنبأت بأن داليا في خطر قبل أن يقع الحادث!

-نعم، لأنني أعرف الرجل تمام المعرفة.. تعاركت معه عددا من المرات لـسرقاته المتكررة من مخصصات المرضى من الأدوية الأجنبية واستبدالها بالمحلية، ومن الحليب المجفف المدعوم بكل الفيتامينات.. وكان المدير الإداري يتساهل معه ويقول "فقيـر، الله يساعده، متزوج امرأة ألمانية تريد أن تتركه وراتبه قليل!" فلما علمت بما جـرى لـداليا على يديه من أذى علمت أن التساهل مع طبيب لا يملك شرف المهنة قد تؤدي بـه الـى القتل المتعمد فضلا عن حرمان امرأة من الإنجاب ليرث ثروة طائلة يمتلكها خاله..لقـد بعث المدير الي حينذاك بإنذار أن أحسن سلوكي، ولا أتدخل فيما هو ليس مـن شـأني.. تصوري ماذا كان يجري في ذلك المشفى الرهيب السائب المسؤولية والإستقامة بالنـسبة لمن يرتاده من مرضى وجرحى! ولكنني لم أسكت لهم.. تصديت لهم بما يستحقون!

-أنا كنت أريد أن أدافع عن داليا وأدين هذا الطبيب لأنني ذهبت معها الى المحلـل الذي يستعين به المستشفى، وهو الذي قال لها بأن المبيضين سليمين ولم يكن فيهما أثـر للسرطان كما ادعى الطبيب أمام زوجها، وأن تقريره موثّق في إدارة المشفى.. ولما قلت

له بانني محامية داليا وأطلب منه أن يشهد في المحكمة على ذلك أصابه الذعر وبدأ بقوله أن شهادته قد تخرب بيته، وتفقد ثقة المستشفيات الأخرى فيه، وقد يقاضونه لأنه أفـشى أسرار المستشفى، أو حتى بالتزوير لأنهم قادرون على التخلص من أي تقريـر موثـق يدينهم..

وجدت نفسي أكشف لوالد أسماء عن سبب القرار الذي اتخذه كريم وأسماء في ترك لبنان والعودة الى أميركا.. وأردفت:

-لقد أصبح وسيم وارثا لنصف ثروة داليا، وللبيت الذي يـسكنه غـانم، بموجـب الوصية التي استكتبتني إياها في المستشفى وشهد عليها ثلاثة من أطبائه.. والمديرنفـسه حين عرف قصة داليا مع كريم وأن وسيم هو ابنها الحقيقي نصح كريم بالسفر، ولم يتشدد في إنهاء عقده قبل أوانه..

-ماذا جرى في تحقيقات نيويورك في حرق المصرف، ومقتل الأمير؟

-أخي هشام مستمر في إقامة الدعوى الأولى على غانم، ولكنه أفلـت فـي المـرة السابقة، وعاد موفور الكرامة لنقص الأدلّة ورفضت شهادة أنطون وهو المسؤول الأمني للمصرف واعتبرت مزورة وهو في السجن الآن.. أما بعد مقتل الأمير فالتحقيقات فـي غاية السرية، ولا أدري ما يجري هناك الاّ أمرا واحدا تأكدت منه، هو أن ثروة المرحوم مجمدة في المصارف حتى يظهر الجاني..

-ألم يجد أخوك أثرا للشخص الذي كان يدعم غانم في حملته الإنتخابية؟

-لم يجد في دليل نيويورك أو في مصارفها أحدا يحمل هذا الإسم..

-ربما كان مصرفا يتاجر بالممنوعات التي يهربها غانم الى نيويـورك وتتغاضـى عنها السلطات كمنفذ للتعامل مع الفساد الذي يخدم مصالحها في بلادنا..أو ربمـا يكـون مصرفه في بلد قريب من نيويورك..

-ربما، ولكن ليس من السهل كشفه فهو محاط بالأسرار.. قالت أسماء:

-أعطني اسم هذا الرجل فلعلي أبحث عنه في بوسطن..

* * *